الصباح الإسلامية
08
إعداد : ياسر السيد
العدد 2239 - السنة الثامنة
الجمعة 29 شوال 1436 - الموافق 14 اغسطس 2015
Friday 14 August 2015 - No.2239 - 8th Year

طريق للفساد وسبب للضرر بين العباد وانصراف عن الأخذ بالأسباب

السحر.. من كبائر الذنوب

وقف الإسلام من السحر موقفا حاسما، فسدّ كل طريق يؤدي إليه، وحرّم تعلمه وتعليمه وممارسته، منعا لضرره، وحسما لمادة الخرافة أن تتسلل إلى عقول المسلمين فتعطلها عن التفكير الصحيح، والتخطيط القائم على قانون الأسباب والمسببات الذي قام عليه نظام الكون.

فالسحر كما أخبر الله عنه طريق للفساد وسبب للضرر بين العباد، وهو فوق ذلك كله سبب للكفر بالله سبحانه والخروج عن دينه وشرعه.

والسحر في اللغة صرف الشيء عن وجهه، وفي اصطلاح الشرع عرفه ابن قدامة بأنه: « عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه». وعرّفه أبو بكر الرازي بأنه: « كل أمر خفي سببه، وتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخدع».

واختلاف التعريفين مرده أن كلا منهما قائم على مذهب يختلف عن الآخر، فتعريف ابن قدامة قائم على أن للسحر حقيقة، أما تعريف الرازي فهو قائم على مذهب من لا يرى للسحر حقيقة وأنه مجرد خدع وتمويهات وتخييل ، والقول الأول هو قول أهل السنة والجماعة، قال الإمام النووي : «والصحيح أن السحر له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء... » وقال الإمام القرطبي – رحمه الله – : «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ». وقال الإمام ابن القيم: «وقد دل قوله تعالى: ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ (الفلق:4) وحديث عائشة رضي الله عنها على تأثير السحر وأن له حقيقة ».

ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾(البقرة: 102) ووجه الدلالة من الآية أن الله أخبر فيها أن للسحر آثارا محسوسة كالتفريق بين المرء وزوجه، وأن له ضررا مباشرا – بإذن الله –، وهي آثار محسوسة لا يمكن إنكارها، مما يدل على أن للسحر حقيقة، وليس مجرد خدع وتخيلات..!! والواقع المشاهد يقرر هذا ويؤيده.

من السحرة من يزعم الاستعانة بالكواكب ومنهم من يستعين بالجن ومنهم الذي ينفخ في العقد

أما القائلون بأن السحر لا حقيقة له – وهو قول عامة المعتزلة وآخرين – فيتلخص رأيهم في أن السحر مجرد تمويه وتخييل فلا تأثير له لا في مرض، ولا حل، ولا عقد، وبناء عليه فإنهم يجعلون السحر نوعا واحدا وهو سحر التخييل.

يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: « إن السحر في الحقيقة لا يوجب المضرة لأنه ضرب من التمويه والحيلة...»، ويقول أبو منصور الماتريدي : « والأصل أن الكهانة محمول أكثرها على الكذب والمخادعة، والسحر على التشبيه والتخييل»، ويقول ابن حزم : «... وقد نص الله عز وجل على ما قلنا فقال تعالى: ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ (طه:66) فأخبر الله تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخيلا لا حقيقة...» والاستدلال بهذه الآية مدفوع إذ ليس فيها أن السحر لا يكون إلا من قبيل التخييل، بل غاية ما تدل عليه الآية أن سحر السحرة في زمن فرعون والذي وقع في ذلك الوطن كان من ذلك القبيل، لا أن كل أنواع السحر كذلك.

أنواع السحر وأقسامه:

تتعدد أنواع السحر بتعدد الاستعانات التي يستعين بها الساحر في تحقيق غرضه، فمن السحرة من يزعم الاستعانة بالكواكب، ومنهم من يستعين بالجن، ومنهم من يستعين بالنفخ في العقد، ومنهم من قصارى أمره خفة اليد وسرعة الحركة، وإليك تفصيل هذه الأنواع:

النوع الأول: السحر الذي يستعان فيه بالكواكب كسحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم، وهؤلاء كانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة، ويعتقدون أنها المدبرة للعالم، وأن حوادث العالم كلها من أفعالها، وقد قادهم هذا الاعتقاد الباطل إلى اعتقاد أن لها ادراكات روحانية فإذا قوبلت ببخور خاص ولباس خاص على الذي يباشر البخور مع إقدامه على أفعال خاصة، والفاظ يخاطب بها الكواكب كانت روحانية الفلك مطيعة له، فمتى ما أراد شيئا فعلته له على حد زعمهم . وقد بعث الله إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلا لمقالتهم . وتأتي الاستعانة بالكواكب على أنواع منها:

1 – نوع يسمى بالطلاسم؛ وهو عبارة عن نقش أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب – على زعم أهلها – في جسم من المعادن أو غيرها تحدث به خاصية معينة.

2 – نوع يعتمد النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها، معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرا حال انفراده، كما أن له تأثيرا حال اجتماعه بغيره على الحوادث الأرضية من غلاء الأسعار ورخصها، ووقوع الحوادث، وهبوب الرياح ونحو ذلك .

3 – نوع يعتمد النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين، معتقدين التأثير في اقتران القمر بكل منزل منها ومفارقته، وأن في تلك المقارنة أو المفارقة سعودا أو نحوسا أو تأليفا أو تفريقا وغير ذلك .

4 – نوع يفعله من يستخدم الأرقام لحروف أبجد هوز.... المسمى بعلم الحرف . وهو أن يكتب حروف أبجد هوز... إلخ . ويجعل لكل حرف منها قدرا معلوما من العدد، ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها، ويجمع جمعا معروفا عنده ويطرح طرحا خاصا ويثبت إثباتا خاصا، وينسبه إلى الأبراج الإثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان .

يقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – عن سحر الكلدانيين: « ومعلوم أن هذا النوع من السحر كفر بلا خلاف . لأنهم كانوا يتقربون فيه للكواكب كما يتقرب المسلمون إلى الله، ويرجون الخير من قبل الكواكب، ويخافون الشر من قبلها كما يرجو المسلمون ربهم ويخافونه. فهم كفرة يتقربون إلى الكواكب في سحرهم بالكفر البواح ».

النوع الثاني: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم شياطين الجن . فإن اتصال بني آدم بهم ممكن، وهذا الاتصال يحصل بشيء من الرقي والدخن والتجريد . وعندما يتحقق الاتصال تحصل الاستعانة ثم الإعانة، لكن ذلك لا يكون دون الشرك بالله تعالى.

النوع الثالث: الشعبذة، ومبناها على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بشيء معين دون سواه . فصاحب الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئا آخر بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا، ولو أنه لم يفعل ما يصرف به انتظار الناس، لتفطنوا لكل ما يفعله . ولا يبعد أن يكون سحر سحرة فرعون من هذا النوع . فهو تخييل وأخذ بالعيون كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾.

النوع الرابع: العقد والنفث فيه – النفخ مع ريق خفيف –، قال تعالى: ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾(الفلق: 4) والنفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن في كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، وذلك إذا كان المسحور غير حاضر، أما إذا كان حاضرا فينفثن عليه مباشرة. وهذا كله بعد أن تتكيف نفس الساحر بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري. ومن هذا النوع سحر لبيد بن الأعصم اليهودي للرسول صلى الله عليه وسلم.

آثار السحر ومفاسده:

للسحر آثار مدمرة على الفرد والمجتمع، وقد أجمل القرآن مفاسد السحر فذكر في مقدمتها الكفر بالله سبحانه، والتفريق بين المرء وزوجه، وإدخال الضرر على العباد، قال تعالى: ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ يقول القرطبي في تفسير الآية: « ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب، بالحب والبُغض، وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام، وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة » أ.هـ

وإليك – أخي القارئ – بعضا مما ذكره أهل الاختصاص من آثار السحر ومفاسده:

1 – سحر التفريق بتفريق المرأة عن زوجها وتفريق الزوج عن زوجته عن طريق الاستعانة بالشياطين والجن بحيث يجعل الرجل القوي لا يقدر على مباشرة زوجته، ويجعل المرأة تتمنع على زوجها وتأبى قربه، قال الحافظ بن كثير: « وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء المنظر أو الخلق أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ». وهذا السحر من أخطر الأنواع لما ينتج عنه من فساد الأسر، وفشل الحياة الزوجية.

الضر والنفع بيد الله عز وجل ولا يملك أي بشر أن يضر أو ينفع إلا بإذنه سبحانه وتعالى

2 – سحر الجنون: وأعراضه الشرود والذهول والنسيان والهيل والخبل ويجمع ذلك كله عدم القدرة على التحكم في نفسه وتصرفاته، وسبب هذا اقتران الشيطان بالمصاب وتأثيره على مخه، ولا يخفى أن ليس كل جنون هو بسبب اقتران الشيطان بالإنسان وسيطرته على مخه، وإنما هناك أنواع أخرى أسبابها عضوية، ويرجع في تشخيص كل حالة إلى ذوي الاختصاص.

3 – سحر المرض: وهذا النوع من السحر يأخذ شكل مرض من الأمراض، إلا أن سحر المرض يختلف عن الأمراض العضوية في أنه ربما انتقل من موضع في الجسم إلى آخر دونما سبب محسوس، يقول جمال عبد الباري : « ومن الحالات التي رأيتها حالة مهندس كيميائي . عند إجراء الفحوصات الطبية عليه يتضح أنه مصاب بالضغط والسكر وحصى في الكلى، وفي اليوم التالي يجري فحوصات طبية فيجد نفسه سليما تماما والتقارير التي معه تقول هذا » . وهذا النوع – أعني سحر المرض – أصيبت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فعنها أنها أعتقت جارية لها عن دبر منها أي تكون حرة بعد موت سيدتها، ثم إن عائشة رضي الله عنها مرضت بعد ذلك ما شاء الله، فدخل عليها سندي – نسبة إلى السند –، فقال إنك مطبوبة – مسحورة –، فقالت من طبني ؟ فقال: امرأة من صفتها كذا وكذا، وقال: في حجرها صبي قد بال، فقالت عائشة: ادعوا لي فلانة، لجارية لها تخدمها، فوجدوها في بيت جيران لها في حجرها صبي قد بال، فقالت حتى أغسل بول هذا الصبي فغسلته، ثم جاءت، فقالت لها عائشة : أسحرتيني ؟ فقالت: نعم. فقالت لم ؟ قالت: أحببت العتق » رواه مالك في الموطأ.

4 – سحر المحبة: يقوم الساحر بطلب من المتقدم إليه ليعمل له سحرا يحبب زوجته أو غيرها فيه، أو ليعمل للزوجة سحرا يحبب زوجها أو غيره فيها، وذلك بأخذ أثر من آثار المسحور، فتظهر أعراض هذا السحر المرضية، وقد ينقلب السحر على الساحر فيكره الزوج زوجته كما يكره كل النساء معها، لأن السحر قد يكون مزدوجا بحيث يعمل ليحب زوجته ويكره من سواها فيكره أمه وأخته وعمته وخالته ، وقد ينقلب فيكره أيضا زوجته.

5 – سحر التهييج : وهذا السحر من أفحش ما يكون إذ يجمع بين السحر وطلب الفاحشة، حيث يسعى الساحر إلى تهييج قلب طرف ذكر كان أو أنثى لمجامعة الطرف الآخر، يذكر ابن قيم الجوزية في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في الباب الثامن والعشرين « فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام » قصة لهذا النوع من السحر، فقال: توفي شاب – كان صالحا باريا بأبيه – وسبب وفاته أن امرأة أحبته فأرسلت إليه تشكوا حبه وتساله الزيارة وكان لها زوج، فالحت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فوعدتها العطاء الجزيل في تهييجه، فعملت لها في ذلك، فبينما هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط – فسد عقله –، فقام مسرعا فصلى واستعاذ والأمر يشتد، فقال: يا أبت أدركني بقيد، فقال: يا بني ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره » أ.هـ بتصرف يسير.

من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم والذي يؤكد أنه من عند الله

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده

القرآن كتاب بليغ موجز أنزله الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم ومن الإعجاز البلاغي في القرآن قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

اشتملت هذه الآية –على قصرها– على معان بلاغية كثيرة، فقد جمعت هذه الآية عشرة أنواع من الخطاب في موطن واحد، وهذه الأنواع هي: النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والإعتذار. قال ابن القيم عن هذه النملة: «ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة، النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة، ولذلك أعجب سليمان قولها، وتبسم ضاحكا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها».(14).

وهذه الآية من الآيات البديعة، التي جمعت بين الإيجاز، والإطناب، في أسلوب رفيع، أما الإطناب فتلحظه في قول هذه النملة: أيا أيُها وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أما قولها: أيا أيُها، فقال سيبويه: «الألف والهاء لحقت (أيّ) توكيدا؛ فكأنك كررت (يا) مرتين، وصار الاسم تنبيهًا». وقال الزمخشري: «كرر النداء في القرآن بـ(يا أيها) دون غيره؛ لأن فيه أوجها من التأكيد، وأسبابا من المبالغة: منها: ما في (يا) من التأكيد، والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرّج من الإبهام في (أيّ) إلى التوضيح، والمقام يناسبه المبالغة والتأكيد».(15).

وأما قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فهو تكميل لما قبله، جيء به، لرفع توهم غيره، ويسمّى ذلك عند علماء البلاغة والبيان: احتراسا، وذلك من نسبة الظلم إلى سليمان عليه السلام، وكان هذه النملة عرفت أن الأنبياء معصومون، فلا يقع منهم خطأ إلا على سبيل السهو. وفي ذلك قال الفخر الرازي: «وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام».

وأما الإيجاز فتلحظه فيما جمعت هذه النملة في قولها من أجناس الكلام فقد جمعت النداء، والكناية، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتعميم، والإشارة، والعذر. فالنداء (يا)، والكناية (أيّ)، والتنبيه (ها)، والتسمية (النمل)، والأمر (ادخلوا)، والنص (مساكنكم)، والتحذير (لا يحطمنكم)، والتخصيص (سليمان)، والتعميم (جنوده)، والإشارة (هم)، والعذر (لا يشعرون)، فأتت هذه النملة بذلك خمسة حقوق: حق الله تعالى، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتها، وحق الجنود، فأما حق الله تعالى فإنها استرعيت على النمل، فقامت بحقهم.

وأما حق سليمان عليه السلام فقد نبّهته على النمل. وأما حقها فهو إسقاطها حق الله تعالى عن الجنود في نصحهم. وأما حق الرعية فهو نصحها لهم: ليدخلوا مساكنهم. وأما حق الجنود فهو إعلامها إياهم، وجميع الخلق، أن من استرعاه الله تعالى رعيّة، وجب عليه حفظها، والذبّ عنها، وهو داخل في الحديث المشهور: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».(16).

وأما قولها: ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ فقيه إيجاز بالحذف بليغ؛ لأن أصله: ادخلوا في مساكنكم، فحذف منه (في) تنبيها على السرعة في الدخول، ومن الفوائد البديعة، التي لا ينتبه إليها الكثيرون: أنك إذا قلت (دخلت) فإنك تعني بذلك انتقالك من بسيط من الأرض، ومنكشفها إلى ما كان منها غير بسيط، ومنكشف، فإذا كان المنقول إليه مكانا غير مختص، وجب إدخال (في) قبله. وإذا كان مكانا مختصا، جاز إدخال (في) قبله، وجاز إسقاطها. وإسقاطها أبلغ من إدخالها للفائدة التي ذكرناها.

وعلى هذا تقول: دخلت في البيت، ودخلت البيت. ومن دخولها قبل المكان غير المختص قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وقد اجتمع ذكرها، وحذفها في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ× ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً× فَادْخُلِي فِي عِبَادِي × وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27–30].

وأما قولها: لَا يَحْطِمَنَّكُمْ، بنون مشددة أو خفيفة، فظاهره النفي؛ ولكن معناه على النهي. والنهي إذا جاء على صورة النفي، كان أبلغ من النهي الصريح. وفيه تنبيه على أن من يسير في الطريق، لا يلزمه التحرّز؛ وإنما يلزم من كان في الطريق(17).

والنملة بدأت مخاطبة قومها مخاطبة العقلاء وجاءت بلفظ مساكنكم ولم تقل بيوتكم أو جحوركم لأنهم في حالة حركة، والحركة عكسها السكون، فاختارت لفظ المساكن من السكون حتى يسكنوا فيها، ولم تقل المساكن والجحور وإنما قالت مساكنكم أي أن لكل نملة مسكنها الخاص الذي تعلم مكانه، ولم تقل ادخلن وإنما قالت ادخلوا، ثم أكدت بالنداء بقولها أيا أيُها النَمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ حرف النداء الدال على البعد حتى يسمعوا نداءها، وقالت سليمان وجنوده ولم تقل جنود سليمان حتى ترفع العذر عن سليمان أيضا، فلو قالت جنود سليمان لكان سليمان غير عالم إذا كان قاصدا أو غير قاصد، وجاءت بلفظ سليمان بدون أي لقب له كالنبي سليمان للدلالة على انه مشهور بدون أن يوصف، ثم حثتهم على الإسراع في التنفيذ قبل أن تنالهم المصيبة(18).

«وإنك لعلى خلق عظيم»

اتصف نبينا عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، كيف لا وقد كان خلقه القرآن، كما أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إذ بعثه الله رحمة للعالمين وقدوة للمستقيمين، بشيرا للصالحين ونذيرا للمعاندين، فقد اكتمل أدبه مع رب السموات والأرضين، وأهل بيته الطيبين، وصحابته الميامين، بل حتى مع الكفار المعاندين، حتى زكّاه الله في كل شيء وجمع له خصال الخير بقوله تعالى(وإنك لعلى خلق عظيم)[1].

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ××× منها وما يتعشق الكبراء

زانتك في الخلق العظيم شمائل ××× يغرى بهن ويولع الكرماء

صلى عليك الله ما صحب الدجى ××× حاد وحنت بالقلاء وجناء

فهذه فوائد منتقاة وفرائد مستقاة، من كلمات العلماء والمفسرين، لتقوي عزيمتنا وتنير طريقنا، وتزيد من تمسكنا واتباعنا ومحبتنا لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

قيل: سمي الله خلقه عظيمًا لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله: «خذ العفو» (الأعراف198–) الآية[2].

وقال جنيد: سمي خلقه عظيماً لأنه لم يكن له همّة سوى الله[3].

والعظيم: الرفيع القدر، الجليل الشان، السامي المنزلة[4].

إذ ماذا يمكن للبشر أن يقولوا فيه بعد قول الله تبارك وتعالى هذا؟! وما قيمة أي كلام يقولونه أمام شهادة الله تعالى هذه؟ وأن أعظم مدح له أن تقول فيه ما قال ربنا عز وجل: إنه عبد له ورسوله، فتلك أكبر تزكية له[5].

جبل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على كل خلق فاضل كريم قال تعالى: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ فخلقه بأكرم السجايا، وجميل الأخلاق، وحسن الطوية وصفات الخير جميعها، كما نزهه عن كل ما يحط من قدره وينقص من منزلته[6].

فمن كان الله عز وجل متوليه بالأخلاق الشريفة، فليس بعده ولا قبله مثله في شرف الأخلاق[7].

يتميّز الأنبياء عادة بالاتّصاف بأكرم الصفات وأسمى الآداب والأخلاق، ليبشروا دين الله ودعوة التوحيد في الأرض، ويتحمّلوا صنوف المواجهة والمعارضة، ويجلبوا على الناس ويتوسّعوا فيهم، ونبيّنا صلى الله عليه وسلم هو في قمة الخلق والأدب، وصفوة الناس في مكارم الأخلاق والآداب، لأنه خاتم النبيين، والرسول إلى الناس كافة وإلى العرب خاصة، وسمة هؤلاء: القسوة والجفاء، والشدة والفظاظة، والنجاح في الدعوة إلى الله يتطلب إلانة القلوب القاسية، وإزالة جفاء النفوس، لذا وصف الله تعالى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم[8].

مَحاسنُ أصناف النّبيّين جمّة ××× وما فضلت السّبق إلا لأحمد

كان صلى الله عليه وسلم سهلا لينا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا للقلب من ساله، لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال صلى الله عليه وسلم[9].

رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة، وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك شرف النسب ووفور العقل وصحة الفهم، وكثرة العلم ، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة والتودد والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك[10].

وهذه أكبرُ شهادة من عند ربّ العالمين ، وهل هناك أعظمُ من هذه الشهادة للرسول الأمين الذي طبع على الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق كريم[11].

قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله، والمعنى إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن[12].